استدخال الهزيمة بين الصفات الأصيلة وتردي الواقع

"المطالبة بعودة الاحتلال الفرنسي للبنان نموذجاً"

الجزء الأول

د. إياد أبو زنيط

باحث في مؤسسة يبوس للدراسات/ رام الله

من يُمعن النَظرَ في أَمرِ هذهِ الأُمةِ العَربية، يُلاحظُ وبِكُل ألمٍ أنَّها تُعاني ومنذُ عقودٍ مضت مِنَ التراجُعِ المُستمر، والانحدارِ نَحوَ الهزيمة، والميلِ للاستسلام، بِحيث باتَ يشكُ الناظرُ في أمرِها أنها أصبحت أمةً لا تَكادُ تحيا بدونٍ تَبعيةٍ وانهزام، فَقد تَوالت عليها الهَزائمُ واحدةً تِلو الأُخرى، عَسكريةً و اقتصاديةً و ثَقافية و اجتماعيةً و فكريّة، فتفرقت واضمَحَلت أسبابُ قوتِها وانتصارها، وصارت مَلامُحُ العَجزِ والفَشل واضحةً فيها لا يُمكن إخفاؤها، فَهيَ تُواجه واقعاً مأساوياً قد تَمتَدُ آثاره إلى تَهديدِ هوِيَتِها القَوميةِ والحَضاريّة، فسلوكياتها أصبحت مثارَ تَساؤلٍ، وهزائمها المستمرةَ أضحت تدلُ على وجودِ حالةٍ فكريةٍ في صفوفِ مُعظمِ عامتها ونُخَبها تُشكِلُ الأرضية الخصبة للانحدار والتراجع، وتُجادل هذه الورقة في ظهور ما يُمكن تسميته اصطلاحاً "فِكرُ الهَزيمة"، أو "ثقافة الهزيمة"، وتفترض أنَّ هذا الفكر أصبحَ يستحوذُ على نصيبٍ كبيرٍ في الثقافة العربية الآن وعلى مختلفِ المستويات العسكريةِ والاجتماعيةِ والاقتصاديةِ والثقافيةِ والفكريةِ والإنسانية، بحيث باتت النُخَبُ السياسية والثقافية والفكرية بخاصةً الحكومات والأُطر الرسمية تتقبَلهُ وتتعامَلُ معه وتتخذه قاعدةً جدليةً أساسية في إدارة الشؤونِ العامَّة تخطيطاً وتنفيذاً.

وتنطلق في تعريفه، "بأنَّه ذلكَ الإنتاج النظري لأُمةٍ ما، المصحوبُ بسلوكياتٍ تُكرسُ حالةَ التراجعِ والتدهور على كافة المستويات الاجتماعيةِ والسياسيةِ والثقافيةِ والعلمية، ويُرافقُه انحدارٌ حضاريٌ لتلك الأُمة بحيث تُصبحُ الفجوةُ بينها وبين الأممِ المتقدمة واسعةً إلى الحد الذي يُبقيها تابعة. وهو كلُ فكرٍ يتعارضُ وأساسياتِ النهوضِ المَعروفةُ علمياً أو المجربة عملياً".

تُتهم العقليةُ العربيةُ اليومَ بأنَها تُعاني من صفاتٍ وخصائصَ سلبية مُتجذرة في أصلِ تَربِيتها، كالعجزِ والسَلبية والاتكالية والانهزامية، بل يَعتقدُ البعضُ من المفكرين أنَّ العقلَ العربيَّ بوصفهِ الحالي هو المسؤولُ عما آل إليهِ حالهُ المتردي، فالهزيمةُ والفشل نتاجَ ما يحتويه هذا العقلُ من اضطراباتٍ وصفات سلبية[1]. حددَ بعضُ المفكرين أيضاً سماتٍ عدة للعقليةِ العربية فوصفوها بالأنانِيةِ والسَطْحيةِ؛ وكونِها تميلُ في الأخذ بتفسير الأمورِ بنمطٍ خيالي وتَحليلٍ ساذج، فقد تطور تفسيرُ وإدراك أَبعاد وأَسبابِ الهزيمة بطريقةٍ لا مباليةٍ بحيث صارَ فكرُ الهزيمةِ جزءاً من العقل العربي[2].

في الوقتِ الذي أصبحَ فيه عددٌ لا بأسَ به من المفكرينَ العرب أو غيرهم يَرى أنَّ لِلهَزيمةِ وفِكرِها صفاتٍ ملاصقةٍ للعقليةِ العربية، يرى آخرون أنَّ هذه العَقلية في أَصلها لا تقبلُ الهزيمة، ولكنَّ المناخَ الاكتئابي الذي سادَ الوَطنَ العربي طيلةَ عقودٍ مضت عاشَ فيها العربيُّ تحتَ مشاعرِ الهزيمةِ والفشل، أفقدَ العقليةَ العربية صِفاتَها الأصيلة وأكسَبَها الكثيرَ منَ العيوبِ، فالعربيُّ اليومَ يَحملُ عقلاً مهزوماً لا لِكَوْن الهزيمة أصيلةً في عقلهِ، بل لكونهِ يحملُ في أعماقهِ ترسباتِ أَجيالٍ منَ التأخرِ والخنوعِ ومظاهرِ الجهلِ والانهزامية.

تَردى الواقعُ السياسي العربي الراهن إلى درجاتٍ غايةٍ في الخطورة تُعَوّقُ نُهوضَ الأمةِ وتقدمها على كافةِ المستويات، بِسببَ عجزِ التخطيطِ السياسي العربي عن إزالة آثار الهزائم والحد من فكرها، الأمر الذي يَجعلُ مهمةَ تحرير إرادة المجتمع من ظلمات هذا الواقع أولويةً لا بُدَّ من تناولها بالبحث والدراسة، لاسيما إذا كنا نَهدفُ مِن خلالِ دراستنا وأبحاثنا إلى المُساهمةِ في صياغةِ مشروعٍ إصلاحي لمجتمعاتنا في سبيل مُساعدتِها على النهوضِ والتقدم، والتخلصِ من الأُمورِ التي ساهمت في جعلها أمةً مهزومةً تابعة، وجعلِها قادرةً على احتلال مكانةٍ عالميةٍ لها ولشعوبها، هذه المكانة التي لا يُمكن أن تأتي أبداً في ظلِ واقعٍ سياسيٍّ مهزوم ونخبٍ سياسية تابعة.

---

[1] عمار، حامد: **في بناءِ البَشر**، دارُ المعرفة، القاهرة، 1968، ص 80.
[2] سلطان، محمود: **مقدمةٌ في التربية**، ط1، القاهرة، دارُ المعارف، 1979، ص 160.

رغم أنَّ هناك أنواعاً مختلفة من الهزائم يُعاني منها المجتمع والفرد العربي، بدءاً من الهزيمة الذاتية، والعسكرية، وغيرها، إلاّ أن التركيز بنصب في هذا الطرح على أخطر أنواع الهزائم والمتمثل في الهزيمة الثقافية، فالثقافة، هي مجموع العقائد والقيم والقواعد التي يقبلها ويمتثل لها أفراد المجتمع، ذلك أنَّ الثقافة هي قوة وسلطة موجهة لسلوك المجتمع، تحدد لأفراده تصوراتهم عن أنفسهم والعالم من حولهم، وتحدد لهم ما يحبون وما يكرهون ويرغبون فيه ويرغبون عنه كنوع الطعام الذي يأكلون، ونوع الملابس التي يرتدون، والطريقة التي يتكلمون بها، والأبطال التاريخيين الذين خلدوا في مخيلاتهم، والرموز التي يتخذونها للإفصاح عن مكنونات أنفسهم، فالثقافة سلوكٌ ومحاكاة يعكس فكر وقناعات شخصية المجتمع.[3] ولمَّا كانت الثقافة تشمل العلوم والمعارف والفنون والمعتقد وأسلوب الحياة، رأى ابن خلدون أن الهزيمة الثقافية تبدأ من تقليد الغالب في أسلوب حياته وتناول ثقافته بتفصيلاتها دون النظر إلى منفعةٍ أو ضرر، وفي هذا يقول: " إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده. ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه بل وفي سائر أحواله، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيه"[4].

أمَّا الحضارة، فهي "تلك المظاهر البارزة من حياة المجتمع التي تتميَّز بحظوظٍ وألوانٍ من التقدُّم والرقيّ"،[5] وهي كذلك نظامٌ اجتماعيّ يُعينُ الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافيّ، وهي تتألَّف من عناصرَ أربعة: الموارِدِ الاقتصاديَّة، والنُّظمِ السياسيَّة، والتقاليدِ الخُـلُقيَّة، ومُتابعة العُلوم والفنون. وهي تبدأُ عندما ينتهي الاضطراب والقلق،[6] كما يعرفها ويل ديورانت **Will Durant.**

تتبدى آثار الهزيمة الثقافية في مجتمعاتنا العربية من خلال تقليد ثقافة الغرب بوصفه المنتصر حضارياً، تقليداً تتزعمه وتستجيب له بدايةً النخب العليا في المجتمع ثقافيةً وسياسيةً،

---

[3] الدراجي، إيفان: المبادئ الستة للهيمنة العالمية، بحث منشور على موقع الحوار المتمدن، لمزيد من المعلومات، أنظر الرابط التالي: http://m.ahewar.org/s.asp?aid=263825&r=0&cid=0&u=&i=4752

[4] إبن خلدون، عبد الرحمن: **مقدمة بن خلدون**، ط1، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1998، ص 149.

[5] زريق، قسطنطين: **في معركة الحضارة**، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، 1981، ص 39.

[6] ديورانت، ويل: **قصة الحضارة**، ترجمة: زكي نجيب محمود، المنظمة العربية: دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ج1، ص3.

وفي هذا المعنى يسخر الدكتور عبد الوهاب المسيري قائلاً: " يتوجب علينا أن نبدل ثيابا في العام مرتين[...] فلكل موسم موديلاتٌ جديدة وقصاتٌ غريبة وموسيقى عجيبة، وبرامج ليس لها غاية سوى تسطيح الثقافة وخلق جيل هلامي لا أخلاقي ليس له انتماءٌ أو قيم". ولعل من الشواهد الأخرى على الهزيمة الثقافية تبني العديد من المثقفين العرب لمصطلحات غربية الأصل والمخطط، كالترويج لفكرة "الشرق الأوسط الجديد"[7] وغيرها. وهنا يوضح الدكتور جورج حبش خطورة الهزيمة الثقافية بقوله:

> **"قد نُواجه هزيمةً عسكريةً أو اثنتين وهذه مشكلة، ولكن في تقديري ليست كارثة، فقد يلي الهزيمة العسكرية، كما حصل في عام 1967، انهيار سياسي، وهذه مشكلة مضاعفة، ولكنها أيضاً ليست كارثة، فالأمور ستعود للاستقامة، ولو بعد حين، ولكن الكارثة تحدث، عندما تنهار الجبهة الثقافية [...]، إن هذا الانهيار، يمتد ليصل إلى عمق الإنسان، نعم الإنسان الذي يشكل الأساس، لأي نصر عسكري أو سياسي، إذاً فخطورة الانهيار الثقافي [...]، تنبع من كونه يصيب البنية الداخلية الذاتية للمجتمع، ويدمر الروح المعنوية، والإرادة والتصميم".**[8]

لذا وكوننا نعاني من هزيمة ثقافية متمثلة في تقليد حضارة الغرب نظرياً وعملياً، فإنَّ من واجبنا التمسك بالقضايا والمواقف الجوهرية والأساسية التي تنبعُ أهميتها من كونها في صميم الجبهة الثقافية، والتي تشهد أخطرَ هجومٍ يقودهُ اليوم مجموعة من المفكرين والمثقفين الذين يحلو لهم استدخال فكر الهزيمة.

إنَّ المنتصرَ أو الغرب عموماً يُحاول أن يُرسخ فكر الهزيمة الثقافية في العقلية العربية، وهذا ليس زعماً فقد بدأت حركة ثقافية منظمة في الدوائر الغربية منذ مدة من الزمن لمحو الصورة السابقة للشخصية العربية، وإحلال صورةٍ مشوهةٍ مهزومةٍ مكانها، فهذا هو المستشرق جورافسكي **(Alex Shwarvexy)** يقول: " في ذهنية الأوروبي المثقف في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد صورةٌ راسخة للعرب والمسلمين كأمة متفلسفة [ذكية] بالدرجة الأولى". ثم يشير نفسه إلى أنه في المراحل اللاحقة قد تم تشويه صورة العربي في الثقافة

---

[7] شباط، عبد الحكيم: مجلة العلوم الاجتماعية، حزيران، 2012، لمزيد من المعلومات أنظر الرابط، http://www.swmsa.net/articles.php?action=show&id=2151

[8] مكاوي، إبراهيم: مواقف في النقاش مع الفكر الذي استدخل الهزيمة، لمزيد من المعلومات أنظر الرابط التالي: http://webcache.googleusercontent.com/search?q=cache:o05skFucAa8J:www.t1t.net/book/save.php%3Faction%3Dsave%26id%3D1257+&cd=1&hl=ar&ct=clnk&gl=ps

الأوروبية فيقول"[...] بل إن صفة عربي ذاتها حملت في هذا السياق نوعاً من المضمون التحقيري الإزدرائي"[9] ومثلُ هذه الأيدلوجيا تلعبُ دوراً مزدوجاً، فهي مُوجهة للعقلية العربية لترسيخ فكرةِ التبعية والدونية والهزيمة الثقافية وتبريرها من جهة، وبنفسِ الوقت موجهةٌ للذهنية الغربية نفسها لتبرير هيمنتها وسيطرتها على الشعوب العربية أمام الرأي العام الداخلي من جهةٍ ثانية.

قبل الخوض في تفاصيل الهزيمة في العقل العربي يَجدر بنا أن ننظر إلى عيوبنا ونواقصنا، وأن تكون لنا جهةُ نظرٍ ناقدةٍ للذات العربية، فمثلما للعرب فضائل ومزايا بلا شك، إلا أنَّ للعرب عيوباً وخصائص كذلك، وقد تكونُ السببَ وراء تغلغل فكر الهزيمة وثقافتها في العقل العربي، لذا نرى لزاماً تناول أهم ملامح الشخصية العربية من وجهة النظر العربية والغربية؛ فالشخصية العربية تتهم فردياً وقومياً بأنها تعاني من مجموعة أساليب وخصائص وسمات سلوكية سلبية التصقت بها تحت تأثير عوامل بالغة التنوع والأهمية، وذلك لما مرت به هذه الشخصية من ظروفٍ اقتصادية، وتاريخية، واجتماعية، وسياسية عبر السنين الماضية. حيث أثرت هذه الظروف في تشكيل الشخصية العربية، وإكسابها الأنماط السلوكية السلبية على المستويين الفردي والقومي.

يعتبر العديد من المفكرين العرب أنَّ شخصية الإنسان العربي بوضعها الحالي هي المسؤولة عن الحالة العربية بكل تجلياتها. فحدد البعض سمات وملامح الشخصية العربية، فوصفوها بأنها شخصيةٌ أنانية وسطحية وجوفاء، تميل إلى الأخذ في تفسير الأمور بنمطٍ خيالي، وبأبسط التفسيرات وأكثرها سذاجة، فانعكست هذه السطحية على تفسير وإدراك أبعاد الهزيمة والفشل بطريقةٍ لا مبالية، ومن غير عمقٍ في معرفة أسبابها، وأساليب مواجهتها لغياب الوعي الحضاري عند هذه الشخصية[10]؛ ولأن العقلية العلمية لم تتجذر فيها بعد لكي تجعلها قادرةً على تفسير هذه الظاهرة بأسبابها الموضوعية الخاضعة للبحث والتجربة[11]. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنَّ الفردَ العربي عاطفي وخيالي، وبالتالي فهو يميلُ إلى اكتساب المعرفة بالحدس بدلاً من

---

[9] مكاوي، إبراهيم: **مواقف في النقاش مع الفكر الذي استدخل الهزيمة**، مرجع سابق.
[10] عمار، حامد: **في بناء البشر**،القاهرة: دار المعرفة، 1968، ص 80
[11] زيغور، علي: **التحليل النفسي للذات العربية**، ط4، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1987، ص 122.

اكتسابها عن طريق التفكير العقلي أو المنطق العلمي، فهو يميل إلى المبالغة في عواطفه وأحاسيسه، فإذا أحبَّ شيئاً ما فهو يقدِّسُهُ، وإذا كرِهَهُ فإنَّه يُنكر وجوده، مما يؤدي به إلى الشكلية والتعميم إلى حد السذاجة، فيُهمل التعامل مع الحقائق ويبتعد عن التفكير العلمي السليم، وبسبب عاطفته فهو يُستثار لدرجةٍ يتخلى معها عن العقل والحكمة، أو يَتخذ قراراته المصيرية دون تروٍ أو تأنٍ وبعيداً عن الموضوعية[12].

يرى آخرون، أن خوف الفرد العربي من الاعتراف بالهزيمة والفشل ومواجهتهما، يقوده باستمرار إلى معالجة الخطأ بالخطيئة، أو ارتكاب خطأٍ أكبرَ باستخدامه أساليبَ سلوكية أكثر خطورة من حدوث الهزيمة ذاتها، ومن هنا جاء انتشار ظواهر سلوكية مَرَضيَّة التصقت بالشخصية العربية، كالكذب والتبرير والإسقاط[13]، لتبرير الفشل والهزيمة وإسقاط المسؤولية عن الذات.

يرى فريقٌ آخر من المفكرين والباحثينَ العرب، بأنَّ العرب قومٌ كسالى، يفتقرون إلى المبادرة والمثابرة والشعور بالمسؤولية، وإلى روح الفريق والتعاون والانضباط، يكثرون الكلام ولا يعملون. كذلك فالتربية العربية جعلت من الإنسان العربي شخصاً كلامياً، ضعيفاً في علاقته مع الجماعة، متمحوراً حول ذاته، لا يحسن التعامل مع إخوته، سريع التحامل على أخيه العربي[14]. وهذه الصفات التي تم ذكرها تعود إلى مجموعة الظروف التي حكمت الإنسان العربي من كبتٍ واستبداد فخلقت عنده مثل هذه الصفات أو طورتها، وهي ليست من باب الاتفاق مع ما يطرحه الغرب وأعداء العروبة، وإنما أتينا على ذكرها في محاولة لمعرفة الواقع ومن ثم الخروج بمعالجة جيدة له.

---

[12] الجمالي، فاضل: **ذكريات وعبر: كارثة فلسطين وأثرها في الواقع العربي**، ط2، بيروت: دار الكتاب الجديد1965، ص 271.

[13] العظم، جلال صادق: **النقد الذاتي بعد الهزيمة**، عكا: دار الجليل للطباعة والنشر، ص 38.

[14] عبوسي، واصف: **العربي العصري: مشاكل التطور والتحديث في العالم العربي**، منشورات جامعة بيرزيت، 1980، ص 311.

أمَّا بالنسبة للمجتمع، فيرى الدكتور حليم بركات في كتابه **المجتمع العربي المعاصر**، أنَّ ملامح الهزيمة في المجتمع العربي تتجلى بما يلي:[15]

- حالة التبعية المتمثلة بعدم قدرة المجتمع العربي السيطرة على موارده ومصيره، ووجود فجوة حضارية وعلمية تفصل بينه وبين المجتمعات المتقدمة، الأمرُ الذي يبقيه عُرضةً للهيمنة الخارجية.

- ظاهرة الفقر المتجلية بوجود فجوةٍ عميقةٍ واسعةٍ بين الطبقات الميسورة والكادحة، الأمر الذي يُولد تبعية داخلية شبيهة بالتبعية الخارجية، وهذا يُعد عاملاً ضاغطاً نحو إبقاء الإنسان والمجتمع العربي مهزومين.

- سلطوية الأنظمة التي لا تُشرك الشعب في صنع مصيره وتعتدي على حريته وتمنعه حقوقه مما يساعد على انهيار الإنسان والمجتمع.

- حالة الاغتراب التي يُعاني منها المجتمع العربي، حيث كشفت الإنهزامات المتتالية، عن عجز المجتمع في مجابهة التحديات التاريخية، وعجز الحركات القومية عن تحقيق برامجها، مما أدى لتداعي المجتمع من الداخل بحيث فقد بوصلته فلم يعد يمتلك خطاً ولا هدفاً، وسيطرت المؤسسات عليه بدل سيطرته عليها، مما أدى لاستفحال الهزيمة فيه.

يرى باحثون آخرون أنَّ هناك صفاتٌ وعوامل أخرى تُساهم في إبقاء الفرد والمجتمع العربي مهزومين، كعدم إيمان المجتمع بالمحاسبة أو المساءلة أو النقد كمعيار للتطور والبناء والبقاء النوعي، بالإضافة إلى هيمنة العادات والتقاليد الاجتماعية المختلفة والموروثة منذ القدم على المجتمع العربي وتغليبها على القانون، وكذلك، الشعارات الوهمية التي ترفعها المجتمعات دون القدرة على تحقيقها.[16]

---

[15] بركات، حليم: **المجتمع العربي المعاصر: بحث استطلاعي اجتماعي**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 6، بيروت، 1998م، ص ص 19-21.

[16] صالح، نبي علي: السمات العامة للمجتمع القبلي التقليدي العربي، منبر الحرية، لمزيد من المعلومات، أنظر الرابط التالي: http://minbaralhurriyya.org/index.php/archives/7529